تأملات :

من الســـاخر !؟

للأستاذ عبد العزيز الكرداني

ذات يوم .. ركبت ترام « المترو » في رفقة صديق له مثل اتجاهاتي ونظراتي وتأملاتي في الناس وفي الحياة . وكان الوقت مساء .. وكانت الأضواء الباهتة تترنح سكرى في سدفة الليل .. وكانت النسمات لينة تنفذ إلى الرئتين في رفق ودعة ، فتستجيش انفعالات وخواطر شتى !

ولما بلغنا في الطريق إلى منتصفه ، أشار صديق خفية إلى رجل يجلس قبالتنا .. وهمس في أذني قائلا : « انظر ..! »

... ونظرت .. فإذا شيخ هِمٌّ أرسل لحيته الكثة إرسالا طريا مستبشما ، فبدت كأنها دغل كثيف منتن . وكان الشيخ في أسماله الحائلة الرثة ، ووجهه القذر المتغضن ، وفمه الفاغر ، ونظراته الشاخصة ، قابعاً في غفلة وتبلد أشبه ما يكون بركام مطرح من قذر وعفونات !

قال صديق بعد فترة من النظر المتأمل إلى وجه هذا المسخ الآدمي « أترى إلى هذا (الشيء !) ؟! أتراه يكون (إنسانا) ؟! »

.. قالها صديق ، ولم يكن يرمي إلى الزراية بهذا التعس .. ولا كان يقصد إلى اصطناع السخر منه .. وكل ما كان يبتغيه أن يفصح — في صدق — عن حقيقة تجسمت أمام ناظريه !

... وافترقنا .. وطوت الذاكرة هذا المشهد فيما طوته من مشاهد ، وإن تحصّل في نفسي راسب منه ، لم يكن من اليسر أن تلمه النسيان ومرور الأيام من واعيتي الباطنة ... حتى كان يوم من أيام هذا الشتاء الجهم لقيت فيه صديق .. فتذاكرنا سويا هذا المشهد ، واسترجعنا في خيالنا صورة ذلك الشيخ . ثم خلفت صديق ، ومضيت إلى داري . وهنالك — حين خلوت إلى نفسي — وجدتني أردد هذه العبارة : «من .. من الساخر؟!» ؛ ثم وجدت ما ينبثق عن خواطر .. رأيت أن أسجلها في هذه القطعة الفنية ، التي أقدمها لصديق .. شريكي في النظر والتأثر — هدية متواضعة .. طالما أمنه أن يمثل الفكر والحس والشعور في مضمونها وفحواها .. ثم أسأله — بعد ذلك — أن يتحرى أن يحاول مطابقة الراسب المتحصل في نفسه بتأثير هذا المشهد ، بالراسب الذي أوحى إليّ هذا الكلام :

« .. من ؟! من يكون الساخر في هذي الحياة ؟!

أتراه يكون ذلك الشيخ الهم الذي طوى السنوات الطوال — وما زال يطويها — لا يدري من أمر خلقه شيئاً .. لا يعلم للحياة غاية إلا أن يعيش .. ويظل يعيش !

.. لا يعرف من هدف في الدنيا سوى أن يعمل على أن تمتد به الحياة .. ليظل يحيا .. لينسأ أجل الوفاة !

إنه ليأتدم بالخبز مختلطاً بالقذر ؛ ويطعم شرائح اللحم ممزوجة بروث البهائم ، ويكرع في الماء الآسن ، حمأ ذائبا فيه الطين ؛ وينام الليل الطويل على فراش من حصى وقش بأسر ! إن حياته لتطرد على هذه الصورة السنين تلو السنين . وهو على حاله من طلب البقاء والرغبة الملحة في الدوام !

أترى ذلك « الشيخ » يكون الســـاخر ؟ أم يكون هذا « الفنان » الذي انصرف عن كل شيء إلا فنه .. ونظر إلى الكون على أنه مرسح تمثل عليه رواية ، لا يهمه من أمرها شيء .. إلا بقدر ما تشبع حاسته الفنية وتروى ...

إن كل ما في الكون ، إنما يتخذ قيمه وخصائصه — عنده — بهذا الفن .. هذا الفن وحده !

وإن ناساً يعيشون في هذه الحياة ، ولا يعرفون من أمر « هذا الفن » شيئاً ، لهم — في نظره — والعدم سواء !

إنه ليلهو عن الحيــاة في واقعها ، بتلك الحيوات الكثيرة المتنوعة .. وتلك العوالم العريضة الرائعة يفتقها خياله المفتن الصناع ، الذي يجد معينه الدافق — دائماً — في عالم النفس الرحيب ، وعالم الروح الطليق !

أترى الساخر يكون ذلك « الفنان » .. أم تراه يكون هذا « الباحث » المنقب الذي سلخ جل حياته حبيس عقله الراصد للظواهر ، المستكنه للعلائق المستورة الخفية ، والخصائص الكامنة المطوية .. تتقلب به الدنيا ، وتدور من حوله الأحداث ، ويجلل الشيب رأسه يوماً بعد يوم ... وهو لا يدري من أمر هذا كله